

وقيل لجالينوس إنك تُقَلِّ من الطعام، فقال غرضى من الطعام أن أكل لأحيا، وغرضى  
غيرى من الطعام أن يحيا ليأكل وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما  
جاء نعى جعفر بن أبي طالب إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنيع طعامهم فاحملوا إليهم  
ما ياكلون. فهذا سنة في حمل الطعام إلى أهل الميت.

## الفصل الأربعون

في ذكر فضائل الفقر وفرائضه. ونعت عموم الفقراء وخصوصهم.  
وتفصيل قبول العطاء وردة. وطريقة السلف فيه

قال الله الكبير المتعال للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وقال  
تبارك وتعالى للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون خسرأ في  
الأرض، فقدم وصف أوليائه بالفقر على مدحهم بالهجرة والحصر، والله تعالى لا يصف من  
يجب إلا بما يجب، فلولا أن الفقر أحب الأوصاف إليه ما مدح به أعباءه وشرفهم به. وأمر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر وأخبر بفضلته في غير حديث، منها عن ابن عمر أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير، فقالوا موسر من المال  
يعطى حق الله عز وجل في نفسه وماله، فقال نعم الرجل هذا وليس به، قالوا من خير الناس  
يارسول الله، قال فقير يعطى جهده.. ومنها حديث بلال أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال له الق الله عز وجل فقيراً ولا تلقه غنيا. وفي الحديث الذى روى عن ابن الأهرابى  
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له لا أفضل من الفقير إذا كان راضيا.. وفي الحديث  
الأخر أن الله تبارك وتعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال.. وفي الخبرين المشهورين يدخل  
فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسائة عام، والحديث الآخر اللهم أحيى مسكينا وأمتى  
مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين. فهذا منه صلى الله عليه وسلم تفضيل للفقراء وإكرام  
لهم وتنبية وحث على فضل الفقر. وروينا عنه صلى الله عليه وسلم خير هذه الأمة فقراؤها،  
وأسرعها تضجيعا فى الجنة ضعفاؤها. وروينا فى خبر إسماعيل النبى عليه السلام المفسر  
لخبر موسى عليه السلام أن إسماعيل قال يارب أين أطلبك؟ فقال الله عز وجل عند المنكسرة  
قلوبهم من أجلي. قال ومن هم؟ فقال تعالى الفقراء الصادقون. وقد روينا فى تفسير قوله  
تعالى «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم»، قال الفقر فى

الدنيا، فمن فرائض الفقر عند الفقراء الصبر عليه بترك المسئلة قبل ورود الفاقة، وقطع الهم عن التشرف إلى الخلق، وأن لا يتناول عند الحاجة ما حظره عليه العلم، ولا يجاوز حداً من حدود الأحكام، وإن سأل عند حاجة لم يستكثر ولم يدخر، فإن أعطى فوق كفايته فاقنتاه ليكف عن المسئلة فلا بأس به، ويتوخى في مسئلته المتقين ومن يعلم أنه يتحرى في مكسبه، فإن مسئلته عمل له يلزمه التورع فيها كما يلزمه الورع في مكسبه، ولا يسأل من يعلم أنه لا يبالي من أين يأكل، ومن لا يُردع عن الحرام في مكسبه. والعبد بنفس الحاجة والجوع يستحق على إخوانه شعبة يقيم بها صلته ويُسكن بها نفسه، وينفس العرى والعُدْم يستحق عليهم ثوباً يوارى به عورته، وذلك لازم للمسلمين وواجب له، فإن قام به بعضهم سقط عن بعض وحبوه. وإن سأل ذلك فلا شيء عليه. ويقال إن كفاية المسئلة صدق السائل في مسئلته، وصدقه أن لا يسأل إلا بعد فاقته ومع خوف التقصير في أداء فرائضه من اختلاف عقله وتشتت قلبه، وأن يكف مع أول الكفاية، ولا يدخر بعد الشبع ليستكثر، ولا يجعل المسئلة إن دُفع إليها له عادة وكداً ولا جرفة، ومهما استغنى عن السؤال فليكن الفقر أحب إليه فإنه أفضل له.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم للسائل حق وإن جاء على فرس، فلو كانت المسئلة إثماً وعدواناً لم يُحت على الإعطاء فيكون معاوناً على الإثم والاعتداء، ولكن ذلك من البر والتقوى لأنه سبب منه ودال عليه، فعاون بالأمر به لحُرمة الإسلام، ولأن المواساة من المعروف والإحسان. وسمع هو رضى الله عنه سائلاً بعد المغرب فقال يا يورفا عَشُ الرجل، فعشاه، ثم سمعه ثانية يسأل، فقال ألم أقل لك عَشُ الرجل، فقال قد عشيت، فنظر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً، فقال لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم نثر المخللة بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة. وروينا عن عليّ عليه السلام أن لله عز وجل في خلقه مثنويات فقر ومقويات فقر، فمن علامة الفقر إذا كان مثنوية أن يحسن خلقه، ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره. ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه، ويعصى به ربه، ويكثر الشكاية، ويتسخط القضاء. وهذا النوع الذى هو عقوبة من الفقر هو الذى استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم وهو فقر النفس، لأن الفقر من المال إنما هو الافتقار إلى الخلق، والفقر إلى الأشياء مع عدم صدق الحال.

وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً على الإسلام فاشتراط عليهم السمع

والطاعة، ثم قال كلمة خفيفة- ولا تسألوا الناس شيئاً ، فكان صلى الله عليه وسلم يأمر بالتعفف والكف عن المسئلة، ويقول من سألتنا أعطيناها، ومن استغنى أغناه الله عز وجل. وقال من لم يسألنا فهو أحب إلينا. وقال عليه السلام استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير، قالوا ومنك يا رسول الله، قال ومعنى. فلو لم يكن في ترك المسئلة إلا دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم، ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم. وفي خبر آخر كانت مسئلته خنوجا وكنوجا في وجهه. وفي الحديث استغنوا بغنى الله عز وجل، قالوا وما هو، قال غداء يوم أو عشاء ليلة. وفي الخبر من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا. ومن كان معه هذا القدر من الدنيا لم يخرج من عموم الفقراء، فإن سأل مع ذلك أخرجه من عمومهم. ومن سأل قبل الجوع أو بعد الشبع، أو سأل ليدخر، أو سأل وله غداء يوم أو عشاء ليلة، أخرجه ذلك من خصوص الفقراء.

وسئل سفیان الثوري عن أفضل الأعمال فقال التجرل عند المحنة، وعلى الفقير أن لا يزكى غنياً لأجل عطائه، ولا ينمّه ولا يمقته لأجل منعه، ولا يعظم أهل الدنيا ولا يكرمهم لأجل دنياهم. وقال ابن المبارك من تواضع الفقير أن يتكبر على الأغنياء. وعن هلى عليه السلام ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله عز وجل، وأحسن منه تبه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل. ومن فرائض الفقر أن لا يسكت الفقير عن حق ولا يتكلم بهوى لأجل دوام العطاء من أحد، ولا لاجتلاب نفع، فإن ذلك وليجة في الدين ومداهنة للمؤمنين. ومن فضائل الفقر أن لا يدخر لأكثر من أربعين يوماً، ولا يكون المنخر أكثر من أربعين درهما، والأصل في ذلك أن الله تبارك وتعالى قال «وإذ واهدنا موسى أربعين ليلة»، فإذا فسح له في تأميل أربعين فالادخار من الأمل، فإن أمل حياة أربعين يوماً جاز له أن يدخر لأربعين، ومن قصر أمله إلى يوم وليلة لم يدخر إلا ليومه وليلته، فترك الادخار مقتضى قصر الأمل. وقد جعل غنى الفقير في أربعين درهما فهذا لعموم الفقراء، فأما خصوصهم فإن غناهم غداء يوم أو عشاء ليلة لقصر أملهم.

ومن فضل الفقير أن لا يهتم برزق غد، كما أن الله تبارك وتعالى لا يطالبه بعمل غد قبل مجيئه، ولأن الرزق معلوم مقسوم والوكيل حفيظ قيوم، وأن يكون راضياً بقره شاكرأ عليه،

ويقتبط بالفقر لعظيم نعمة الله عز وجل عليه فيه، ويخاف أن يسلب فقره أشد من خوف الغنى أن يسلب غناه، لشدة اغتباطه به. وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الفقراء، اعطوا الله عز وجل الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والآ فلا.

وفي الخبر عن الله عز وجل إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنبٌ عجلت عقوبته. وقال موسى يارب من أحبائك من خلقك حتى أحبهم لأجلك، فقال كل فقير فقير. التكرار فيه لمعنيين، أحدهما المتحقق بالفقر، والثاني الشديد الحاجة والضر. وقال عيسى صلى الله عليه وسلم إنى لأحب المسكنة وأبغض الغنى. وقيل كان من أحب أسمائه إليه أن يقال له يامسكين. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه الذى تلقاه من ربه وأمره به: أسألك الطيبات وفعل الخيرات وحب المساكين.

ومما يعتبر به فضل الفقر على الغنى أن أفضل الخلق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن شاركه وقارنه بمعنى وصفه فهو الأفضل لأنه الأمثل فالأمثل، وهم الفقراء وصفهم الله عز وجل بوصفه فقال تعالى «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه» الآية، فلما شاركوه فى العدم وكان حال الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأفضل والأتم، دل على فضل حالهم على غيرهم. وقد قال الله عز وجل «إنما السبيل على الذين يستأنثونك وهم أغنياء»، وقال تعالى «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»، فوصف الأغنياء بالطغى وأوقع عليهم الحجة. وقال فى وصف الفقراء «يحسبهم الجاهل أغنياء»، فلولا أن الغنى مفضول ما نُسب من وصفهم به إلى النقص. والغنى باب الدنيا وأصل التفاخر والتكاثر المذموم. والفقر باب الآخرة وأصل الزهد والتواضع المحمود. وعند أهل المعرفة أن الغنى من الصفات التى لا ينبغى أن يُنازع فيها، ومكروهة لمن ابتلى بمعانيها، وأنه مثل العز والكبر وحب المدح والذكر، فمن أحب شيئاً من ذلك وطلبه فقد نازع الله تعالى لبسته، وتركوا ذلك لأجل الله عز وجل لأنه من صفات الربوبية، وسلّموه له خوفاً منه أو حباً له، وأن الفقر من صفات العبودية مثل الرجاء والخوف والتواضع والذل، فمن طلب ذلك وأحبه فقد تحقق بوصف العبودية، ومن أحب الغنى دل على حبه البقاء. وكان سهل يقول حُبُّ الغنى شِرْكٌ فى الربوبية، أى لأن البقاء من صفات الباقي. ومن فضّل الغنى على الفقر دل على حبه للغنى فظهر بذلك محبة الأغنياء، لأن حب الوصف دليل على حب الموصوف. وحب

الشيء أيضا دليل على بَغْضِ ضده، فإذا أَبْغَضَ الفقراءُ أَبْغَضَ الفقرَ ، وبَغْضِ الفقرِ لِحُبِّ الغِنَى، فقد اختار الرغبة على الزهد، والكثرة على القلة، والعز في الدنيا على الذل، وفي هذا إيثار الدنيا على الآخرة.

ويقال كان الفقر شرف المؤمن، وكان الفقراء فيما سلف في المؤمنين بمنزلة الأشراف. ثم إنَّ الفقراء على منازل ثلاث: فقراء الأغنياء وهم السُّؤال عند الفاقات الكافون نفوسهم مع الكفاية، القانعون بالكفاف، وهم طهرة الأغنياء ومزيدهم من الله تعالى، وهم الذين جعل الله لهم في أموال الأغنياء سهما لأن منهم السائل والمحروم، ومنهم القانع والمعتر. والطبقة الثانية فقراء الفقراء وهم المتحققون بالفقر، المختارون له، المؤثرون إياه على الغنى، لا يبتذلون للسؤال، ولا يعرضون في المقال، راضون بالميسور من مولاهم، تعرفهم من سيماهم، يحسبهم الجاهل أغنياء لتلك المسئلة والشكوى، ومنهم المحروم، حُرِّم السعى للدنيا، ومنهم المحارِف انحرقت عنه الأسباب، ومنهم القانع قنع بما يصل إليه من غير امتهان وتبذُّل فيه، ومنهم المعتر رضى عن الله عز وجل بما يعتريه. وأما الطبقة الثالثة فهم اغنياء الفقراء، وهم الأجواد الأسخياء أهل البذل والعتاء، يأخذون ويخرجون ولا يستكروا ولا يدخرون، إنَّ مُنعوا شكروا المانع لأنه هو المعطى، فصار منعه عطاء، وإنَّ ضُيِّقَ عليهم حمدوا الواسع لأنه هو المحمودُ فصار ضيقه رخاء، وإنَّ أعطوا بذلوا وأثروا، فهم الزاهدون في الدنيا لأنهم موقنون فكفاهم اليقين غنى. وقد كان يمشى يقول الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإنَّ أعطى لم يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين، وفقير لا يسأل وإنَّ أعطى أخذ، فهو مع المقربين في حظيرة القدس، وفقير يسأل عند فاقته فهذا مع الصادقين، وصدقه في حاله كفاية مسئلته. ودُفِعَ إلى إبراهيم بن أدهم ستون ألفا وكان عليه دين وبه حاجات إليها، فردَّها فعوتب في ذلك، فقال كرهت أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء لستين ألفا وقد كانت هائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف في حين أن درعها لمرقوع، فقالت لها الخادمة لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفتقرين عليه، فقالت لو ذكرتني لفعلت. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاها فقال: إنَّ أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعى ثوباً حتى تُرَقِّعيه.

ونحن لم نقل ليس الغنى طريقا للأغنياء إلى الله، وإنما فضلنا طريق الفقراء لأنهم الأمثل

فالأمثل بالأنبياء. وعن الحسن في قوله عز وجل **وما يستوي الأحياء ولا الأموات**، قال الفقراء والأغنياء فجعل الفقراء أحياء بمولاهم، وجعل الأغنياء موتى بدياهم. وقال الثوري رحمه الله إذا رأيت الفقير يداخل الأغنياء فاعلم أنه مُراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. فمن فضّل الغنى على الفقر بعد الأخبار التي وردت في تفضيل الفقر والفقراء فأحسن حاله الجهل بالسنن لإيثار الرأي والهوى على ما فيه أثر وسنة، لأن الأثر إذا جاء في شيء لم يكن للرأي فيه مدخل، وكان في مخالفتك مع العلم به عناد ومحاذاة.

فإن لم يكن للفقير معلوم من الدنيا، وكان رزقه قد أُجري على أيدي العباد من غير تعويض منه لهم من صنائع الدنيا، فقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا المال مال الله، فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، فكان كالاكل ولا يشبع. وروينا من أتاه شيء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، وفي لفظ آخر فلا يردّه. فإن كان محتاجاً إليه وإلا فليصرفه إلى من هو إليه أحوج منه. وروينا عن الحسن وعطاء حديثاً مرسلأ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أتاه رزقه من غير مسئلة فردّه فإنما يردّه على الله. وروينا عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ما المعطى من سعة بأعظم أجراً من الأخذ إذا كان محتاجاً. وقال بعض العلماء لو هرب العبد من رزقه لطلبه حتى يصل إليه، كما لو هرب من الموت لأدركه. وقال أبو محمد رحمه الله لو أن العبد سأل ربه فقال لا ترزقني لما استجاب له وكان عاصياً، ويقال له يا جاهل لا بد أن أرزقك كما خلقتك.

ثم إن الرزق على وجهين، عن معان لا تحصى وأسباب لا تعد ولا تضبط، فمن الرزق ما يأتي العبد بسكونه وقعوده فيكون الرزق هو الذي تحرك إليه ويأتيه، ومنه ما يأتي العبد بحركته وقيامه، والرزق فيهما واحد، والرازق بهما واحد، والحكمة والقدرة في المتحرك القائم وفي الساكن القاعد واحد، إلا أن الأحكام فيهما متفاوتة. ثم إن الأشياء كلها على ضربين، مُسخر لك ومسلط عليك، فما سخر لك سلطت عليه وهو نعمة عليك، وعليك الشكر عليه، وهذا مقام الشكر على معنى الرزق، وما سلط عليك فقد سُخرت له أنت وهو بلاء عليك، وعليك الصبر فيه، وهذا مقام الصبر عن معنى الابتلاء.

ولا يُستحب للفقير أن يأخذ إلا من صديق، ولا يقبل إلا ممن يحب، لأن لأهل المعرفة بالله

عز وجل أن يحكموا في الأسباب بما أراهم الله تعالى من الردّ أو من القبول. وحدثونا عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل، يُغديني يوماً هذا، ويُعشيئي هذا الليلة، فأوحى الله إليه هكذا أصنع بولياي، أجرى أرزاقهم على أيدي الطالبين من عبادي ليؤجروا فيهم. والعالم القاعد عندهم أفضل من الجاهل المتصرف، والعالم المتكسب أفضل من القاعد الجاهل، والقوى التارك للتصرف أفضل عندهم من الضعيف المتصرف، والقوى المتصرف أفضل من الضعيف التارك للتصرف.

وقد جعل الله المستحقين للعطاء ستة، ذكرهم في آيات ثلاث، فقال عز وجل في الآية الأولى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين»، وقال في الثانية «وفي أموالهم حق للسائل والمحروم»، وقال في الثالثة «فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر»، فمن لا معلوم له من تكسب أو تصرف فهو أدخل شيء في هذه الآيات وأحوج إلى الإعطاء. ومن كان ذا معلوم يحتاج إلى أكثر منه لفضل عيلة أو كثرة نفقة، فإنه يدخل بمعنى من أوصافهم، وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول في الآية «إنما الصدقات للفقراء والمساكين»، نزلت في أهل الصفة ومن كان في معناهم إلى يوم القيامة، وكانوا أربعمائة وخمسين رجلاً لم تكن لهم عشائر بالمدينة ولا أموال كالمهاجرين والأنصار. وكانوا نزاع القبائل، أسكنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة المسجد وقسم الله عز وجل لهم الأموال. ثم إن الله سبحانه وتعالى أفرد طبقة سابعة عن جمل هؤلاء الستة، ووصفهم بأحسن الصفات فقال يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم، وقال «وما تنفقوا من خير يوف إليكم»، وكل هذا متصل متعلق بقوله عز وجل «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض»، إلى آخر أوصافهم، فوصفهم بالإحصار في سبيله، وبالعفة عن الدنيا وأبنائها، وأنهم لا يلتحفونها التحافاً لزهدهم فيها، وسمى من لا يعرف أوصافهم جاهلاً، فهذه الطائفة فوق الطبقات الموسومة بالصدقات، المقسوم عليها الزكوات، بل أمر المؤمنين بالإنفاق عليهم من الاكتساب للطيبات من بعد وصف أحسن الخالقين لهم، والله تبارك وتعالى لا يحب عبداً إلا وصفه، والوصف دليل على الحب، والمحبة تدل على الفضل العظيم.

وقد قال بعض الصوفية في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم يد المأطى هي العليا، ويد المأطى هي السفلى، أن المأطى هو الفقير وأن المأطى هو الغنى، ويكون دليل هذا

القول قوله إنَّ الصدقة تقع بيد الله سبحانه تعالى قبل أن تقع بيد السائل، وهو يضعها في يد السائل، فقد صارت يد الفقير هي العليا، لأنها تتلقى عن الله، والله تعالى يقول يد الله فوق أيديهم، ذلك أنها فوق الكل، ولأنه هو المُعطي الأوَّل لهما جميعاً، فكما لا أول أول منه في العطاء، فكذلك لا يد فوق يده في الإعطاء، وإنما الترتيب بين الغنى والفقير أيهما المعطى بعد يد الله تعالى، فقلنا إنَّ المعطى في الحقيقة إذ كان العطاء الحقيقي هو ما يبقى ويديم لا ما يفنى ويذول، وذلك هو العطاء من الآخرة الباقية فصار الفقير هو المُعطي للغنى في الدنيا نصيبه من الآخرة، فأما يد الله تعالى فإنها فوقهما والذي أعطاهما جميعاً، لأن يده فوق الفوق، وفوق التحت، لا يوصف بتحت ولا بأسفل، تعالت أوصافه العليا عن نعوت الخلق السفلى، وهو لا يدخل تحت القياس والتشبيه. فقد حدثنا بعض إخواننا عن شيخ له فقال رأيت أبا الحسن النورى يمد يده ويسأل الناس في بعض المواطن، قال فأعظمت ذلك واستقبحته، فأتيت الجنيد فأخبرته فقال لا يعظّم هذا عليك فإن النورى لم يسأل الناس إلاّ ليعطيهم. إنما سأل لهم ليثيبهم من الآخرة فيؤجّرون من حيث لا يضره.

### ذَكَرَ اخْتِلَافَهُمْ فِي إِخْفَاءِ الْعَطَاءِ وَإِظْهَارِهِ

ومن رأى أن الإظهار أفضل وتفضيل ذلك، قد اختلف فعل المخلصين في ذلك، فرأى بعضهم أن يُخْفَى ما يأخذ من العطاء، لأنه أدخل في التعفف، وأقرب إلى التصون، وأنه أسلم لقلوب الغير، وأصلح لنفوس العامة، وأنَّ فيه النصرة لإخوانه من الغيبة والتهمة، بمثل ذلك أو بأكثر منه، وفيه الاحتياط لأخيه، وعون له على البرِّ والتقوى في قوله عز وجل «إِنَّ تَخْفَوها وَتُؤْتوها الفقراء فهو خير لكم»، وللخبر الذي جاء أفضل الصدقة جُهد المقل إلى فقير في سرِّ، لأن عمل السرِّ يفضل على عمل العلانية بسبعين ضعفاً. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود. وهذا مذهب القراء من العابدين. وقال أيوب السخيتانى إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسداً. وقال بعض الزاهدين ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخوانى يقولون من أين هذا. ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فردّه، ودفع إليه آخر شيئاً في السرِّ فقبله، فقيل له فى ذلك فقال إنَّ هذا أخفى معروفه وعمل بالأدب فى معاملته فقبلنا عمله، والذي أظهر معروفه أساء فى الأدب فى المعاملة فرددنا عمله عليه. ودفع بعض الناس إلى بعض الصوفية شيئاً بين الملا فردّه، فقيل له لم تردّ على الله عز وجل ما أعطاك، فقال إنك أشركت غير الله سبحانه

وتعالى فيما لله ولم تقنع بعين الله عز وجل، فرددت عليك شركك. وقد كان بعض العلماء لا يقبل في العلانية ويأخذ في السر، فسئلت عن ذلك فقال إن في إظهار الصدقة إذلالاً للعلم وامتهاناً لاهله. وكذلك حدثنا أن رجلاً دفع إلى بعض العارفين شيئاً علانية فردّه، ثم دفعه إليه في السر فقبله، فقيل له رددت في الجهر وقبلت في السر، فقال لأنك أطعت الله تعالى في السر فأعنتك على برّك بقبوله، وعصيتّه بالجهر فلم أكن عوناً لك على المعصية. وقد كان سفيان الثوري يقول لو علمت أن أحدهم لا يذكر صلته ولا يتحدث بها لقبلت صلته. وفي هذا لعمري مواطاة لما ندب الله تعالى إليه من الإخفاء، ولما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله من أعمال السر.

وذهب آخرون من أهل المعرفة الموصوفين بالتوحيد إلى أن الإظهار للأخذ أفضل، لأنه أسلم له وأدخل في الإخلاص والصدق، فليس علينا إذ علمنا في سلامتنا وحكم حالنا من إسقاط جاهنا بالأخذ علانية ما وراء ذلك من أقوال الناس، يتولى الله عز وجل من ذلك من به ابتلاه. وقالوا ولأن في التوحيد أن الظاهر والباطن هو المعطى فلا معنى للرد عليه في الظاهر. وقد قال بعضهم سرّ العارف وعلانيته واحد لأن المعبود فيهما واحد، فاختلف فعل أحدهما شرك في التوحيد. وقال بعض العارفين إذا أخذت فظهر فإنها نعمة من الله إظهارها أفضل، وإذا رددت فآخف فإنه عمل لك وإسراره أفضل. وهذا لعمري قول فصل، وهو طريق العارفين. وقال بعض علمائنا إظهار العطاء من الأخذ آخرة، وكتمانه دنيا، وهذا كما قال الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث. وقد ذم الله تبارك وتعالى من كتم ما آتاه الله من فضله وقرنه بالبخل، والبخل باب كبير من الدنيا، فقال تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنعم الله عز وجل على عبد نعمة أحب أن ترى عليه.. وهذا هو الأقرب إلى قلوب الموحدين من العارفين، لاستواء ظروف الأيدي عندهم من العبيد، ونفاذ نظرهم إلى المعطى الأول فاستوى سرهم وعلانيتهم في الأخذ من يده.

**وقصل الخطاب في هذا الباب عندي أنه يحتاج إلى تفصيل، فنقول والله أعلم إن الخلق مبتلى بعضه ببعض، وفرض كل عبد القيام بحكم حاله ليفضل بقيامه ويسلم في حاله، فعلى المعطى أن يخفي ويسر جهده، فإن أظهر ترك علم حاله فنقص بذلك، فكانت هذه آفة من آفات نفسه، وباباً من أبواب دنياه، وعلى المعطى أن يذكر وينشر، فإن أخفى وكتم فقد ترك الإخلاص في عمله ونقص لذلك، وكانت آفة من آفات نفسه وباباً من دنياه مثله. وروينا أن**

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أسدى إليه معروفٌ فليكافئه به، فإن لم يستطع فليشئ به. وفي لفظ آخر من أسدى إليكم معروفا فكافؤه، فإن لم تستطيعوا فاشئوا به خيراً وادعوا له حتى يعلم أن قد كافئتموه. والخبر العام بمعنى ذلك من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

**والنوع الثاني من التفضيل أن على المعطى أن لا يحب أن يذكر معروفه، ولا يشكر، فإن علمت من يقصد ذلك ويحبه منك فترك الثناء على مثل هذا والكتم من الفقير أفضل.**

ومن الناس من يستوى عنده إظهاره للعطاء وإخفاؤه، لصحة يقينه بذلك، وإخلاص نيته فيه، ونفاذ مشاهدته بدوام نظره إلى المنعم الأول، فهذا إن قبلت منه علانيته صلح، وإن أثبتت عليه بذلك جاز، لقوة معرفته وكمال عقله وسبق نظره إلى مولاه فيما وفقه به وتولاه، فيشكر له ذلك ويراه نعمة منه. ومثل هذا جاء الخبر المشهور إذا مدح المؤمن رباً الإيمان في قلبه. وقال بعض العارفين يمدح الرجل على قدر عقله. وقال الثوري من عرف نفسه لم يضره مدح الناس له.

**والنوع الرابع من التفضيل من الناس من إذا أظهر معروفه فسد قصده بذلك، واعتورته الآفات من التزين والتصنع، فمثل هذا لا يصلح أن يقبل منه ما أعلن به، لأنه يكون معينا له على معصيته، وهذا أيضا لا يصلح أن يثنى عليه، فإن ذكر بمعروفه أو مدح به كان ذلك مفسدة له واغتراراً منه، لقوة نظره إلى نفسه ونقصان معرفته بربه، فمن مدح هذا فقد قبله، ومن ذكره بمعروفه فقد أعانه على شركه.**

ثم اختلفوا في الأخذ، من الواجب أفضل أم من التطوع، فرأى بعضهم أن يأخذ من الواجب ولا يقبل من التطوع، لأن الواجب يؤخذ بإذن الله تعالى، والله تعالى أوجب عليه أن يأخذه من حيث أوجب الزكاة، فلو أن الفقراء والمساكين تواطؤوا على أن لا يقبلوا الزكوات، أثموا أجمعون، ولعصوا كلهم بذلك، لإسقاطهم فرض الله عز وجل من الأموال بالزكوات وأيضا لأن هذا أدخل له في جملة الضعفاء والمساكين، وأقرب إلى التواضع والذلة، قالوا ولا منة لأحد علينا فيه، ولاحق يلزمنا عليه إذا كنا نستحق ذلك منه. قالوا لأنه أسلم لديننا لئلا يدخل علينا الأكل بالدين، لأننا إنما نستوجه بالحاجة وحرمة الإسلام فقط، ونخاف أن يكون أخذنا بالتطوع أكلاً بديننا، أو أننا أعطينا لصلاحنا واعتقاد فضلنا فلا نحب أن نحس بشيء دون الفقراء. وهذا مذهب القراء من العابدين. واختارت طائفة أن يأخذوا من النواقل دون

الفرائض، أجروه مجرى الهدية، وقالوا قد أمر بقبولها ونُذِبَ إلى التهادى للتكاف والتحبب. وقالوا ولا نزاحم المساكين في حقوقهم، ولعلنا لا نكمل أوصافهم ونخاف أن لا يوجد فينا ما شرط الله عز وجل لواجبه، ولا نضعه في حقيقة موضعه، أو لا نحتاط لمن يسقط عنه الواجب به، فالتطوع أوسع علينا، ومع هذا فإنهم يشهدون النعمة من الله تعالى، وأن الدين إنما هو لله عز وجل كما قال «إلا لله الدين الخالص»، وأنهم مستعملون بأنفسهم من حيث كانوا مُنْعَمًا عليهم لا منعمين على أنفسهم. وهذه طريقة بعض أهل المعرفة، ومن ذهب إلى هذا إبراهيم الخواص وأبو القاسم الجنيد ومن وافقهما. والأمر في ذلك عندي أن من لم يأخذ من كل إنسان ولا في كل أوان، ولم يقبل إلا عند الحاجة وما لا بد له منه، ثم قام بحكم الله تعالى في الواجب وحكمه في التطوع، أن الحالين يتقاربان، لأن الواجب أمر الله تبارك وتعالى فيه حُكْم، والتطوع نُدْبٌ، وله عز وجل فيه حُكْم، فعلى العبد أن ينظر لدينه ويحتاط لأخيه فيعمل بما يوجب الوقت من الحكم من أيهما كان، فسواءً ذلك، ولا ينظر بظلمة النفس في هوى الحظ، ففي ذلك سلامت.

## الفصل الحادى والأربعون

### فى كتاب حكم المسافر والمقاصد فى الاسفار

فإن سنع لهذا المرید سفرٌ فى الحديث البلاد بلاد الله عز وجل، والخلق عباده، فحيث ما وجدت رزقاً فاقم واحمد الله عز وجل. والخبر المشهور سافروا تقنموا، فغنيمة أبناء الآخرة ربح تجارة الآخرة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها»، وقال عز وجل «قل سيروا فى الأرض فانظروا»، وقال تعالى «وفى الأرض آيات للموقنين». وقال جل وعلا «وفى أنفسكم أفلا تبصرون»، فمن جعلت آياته فى نفسه تبصر ففطن، ومن جعلت له الآيات فى الأفاق سرّ وسرّى، وكذلك قال الله عز وجل «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون»، ومثله «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون». فمن سار فكانت له بصيرة اعتبر وعقل، ومن مرّ على الآيات فنظر إليها تذكر وأقبل. وقد أمر الله عز وجل بالمشى فى مناكب بساطه، والاكل من رزقه بعد إظهار نعمته بتذليل مهاده، فقال سبحانه وتعالى «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه»، قيل فى أسواقها، وقيل قرأها، وقيل جبالها لأنها أعاليها.